مقدمة
بقلم الكاتب الكبير
الأستاذ عباس محمود العقاد

تفضل الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد — وهو صاحب فضل كبير فى رعاية اللجنة والأخذ بيد العاملين فيها ، لتحقيق رسالتها العلمية التى تحمل لواءها لنشر الثقافة العامة — فكتب حفظه الله بقلمه تقدمة لهذه « الموسوعة التيمورية » بما عرف هو عن صاحبها ومؤلفها من سعة العلم وبالغ الأثر فى حب غرس البحث والتنقيب فى نفوس الأدباء الناشئين والكتاب الباحثين ، والأستاذ العقاد خير من يقدم لمثل هذه المؤلفات الضخمة ، تقديراً منه وتشجيعاً للعلم والأدب ، وهو الكاتب الكبير الذى له أثر خالد فى كل ناحية من النواحى العلمية والأدبية ، وفى كل دعامة من الدعائم التى وضعت ليرسى عليها بناء الأمة العربية وإعداد أبنائها للمستقبل الزاهر الباسم الذى بدت طلائعه تبشر بالاستقرار والفوز ببلوغ الآمال .

ولا يسع اللجنة إلا أن تزجى لسيادته شكرها المقرون بالتقدير والاحترام ، والاعتراف له بالفضل فى تخليد ذكرى المجاهدين وتمجيد أعمالهم ، والإشادة بأعمال المكافحين فى سبيل خدمة هذا البلد الخدمة العلمية الحقة .

وهذه هى الكلمة التى تفضل بها كاتب العربية الكبير :

أحمد راشى

هذه مجموعة من نوادر اللغة ، لو ظفر علماء الحضارات بأعيانها وموادها لاجتمع لهم منها متحف عامر بأصول البحث عن الحضارات العربية من أقدمها إلى أحدثها ، وذخيرة حافلة بوجوه المقابلة بين كلّ حضارة منها وسائر أخواتها ، فى أطوارها المتتابعة .

لأنّ علماء « تاريخ الحضارة » — كما لا يخفى — يعتمدون فى دراساتهم على مخلّفات الأمم من الآنية والأوعية ، ومن الأمتعة والأدوات ، ومن كلّ مادّة تدلّ على الأكسية والحلىّ وعلى الأطعمة والأشربة ، ليتعرّفوا بها أحوالها

وعاداتها فى معيشتها اليومية ، ويقيسوا بها درجاتها من التقدم والتخلّف ، أو من الأصالة والتقليد ، ومبلغ اتصال هذا كلّه بالقدرة على تجويد الصناعة وتنويع لوازم المعيشة ، وحسن الفطنة للذوق السليم والمهارة الفنية .

وهذه صفحات تحتوى فى الواقع « متحفاً » واسعاً من مادة « تاريخ الحضارة » لأنّها تحتوى صفْوة التحف اللغويّة التى عثر بها العالم المحقق « أحمد تيمور باشا » أثناء مطالعاته ومراجعاته . وهى — كما يعلم القراء — بحر غزير لا يتوفر فيضه للكثيرين من قراء اللغة العربية ، لأنهم قد يملكون الكتب فلا يملكون الوقت ، وقد يملكون الكتب والوقت فلا يملكون سعة الرزق وطمأنينة النفس إلى الأناة وطول الصبر على التحقيق ، ولا غنى عن الأناة والصبر فى أمثال هذه البحوث .

وقد أربت هذه الصفحات على المائتين وامتلأت كلّها بالشوارد النادرة عن « خلق الإنسان وصفاته والأطعمة والأشربة والفاكهة والنقل والحلى والزينة والطيب والألوان والأصباغ وآلات الطرب وأصوات الغناء » .. فهى — بحقّ — متحف واف للحضارة العربية يغنى المؤرخين لها عن مئات المراجع التى تيسّرت للعلامة الكبير ، وقد يلجئهم إلى تلك المراجع لإعادة النظر والاستقصاء ، فيغنيهم جهد العلامة المؤلّف فى البحث والتدوين عن جهد جديد لإحصاء المرجع بعد المرجع والاهتداء إلى الشاهد بعد الشاهد بين فصوله وصفحاته .

وأقرب ما نمثل به لفائدة هذا المتحف النفيس تلك الصفحات التى اشتملت على آلات الطرب وأصوات الغناء ومصطلحات علم الموسيقى والإيقاع . فإن خبراء الغناء عندنا وخبراء التاريخ معاً يجهلون كلّ شىء عن هذا الفن العربىّ غير أسمائه وأسماء آلاته ، ويحاولون أن يعيدوا « أغنية » واحدة مذكورة بتلك الأسماء فلا يخرجون من محاولاتهم بغير الظنّ والتخمين ، وسبب ذلك أنّ

الخبير الغنائى لا يعرف مراجع التاريخ ، وأن الخبير التاريخى لا يعرف قواعد الغناء القديم ، ولعلّه لا يعرف قواعد الغناء الحديث ... فإذا تسنّى لباحث موسيقى تاريخى أن يقف على كلّ ما وُصفت به الأغانى ووُصفت به آلاتها ومناسباتها ، فمن الميسور أن يهتدى الموسيقيون والمؤرّخون معاً إلى أسرار تلك المصطلحات ، وأن يعيدوا لنا « السماع » العربىّ كلّه مسموعاً مسجّلاً بألحانه وأوزانه وأصواته ونغماته ، غير قانعين كما نقنع اليوم بإعادة أخبار السماع — على السماع ؟

ويستفاد غير هذا العلم من غير هذا الباب ، لأنّ العلاّمة الكبير قد وفى المعرفة حقّها بطول البحث والنظر وطول المراجعة والمتابعة ، ووفى الأمانة حقّها بإثبات ما رآه كما رآه . ونرجح نحن أنّ الموسوعة لم تأت بتصحيف من عندها غير التصحيف الذى نقلت عنه ، ففيها عن «أنس الوحيد» بيت فى الإيقاع ليس ببيت وهو :

إنْ رقصى على مقدار إيقاع الزمان

وصحته كما نذكر :

ولا تعتب علىّ فإن رقصى على مقدار إيقاع الزمان

ولكن « أنس الوحيد » على ما نرجح هو المسئول عن هذا الاختزال ، ومثله كل منقول حفظته أمانة النقل بما عرض له من تصحيف .

* * *

قيل لابن حزم : إنك لا فضل لك فى علمك لأنّك حصلته وأنت تطالع الكتب على مصابيح الذهب : فقال ما معناه : بل الفضل لى فى ذلك فضلٌ لا ينازعه من طالع الكتب على غير تلك المصابيح ، لأنّه إنّما طلب العلم ليصير إلى مثل ما أنا فيه ، ولكننى طلبته مستغنياً به عن كل طلبة ، لأننى لم أبلغ به نعمة كنت أفقدها قبل الوصول إليه .

ويحقّ لنا أن نضع هذه الكلمة على لسان علّامتنا السريّ بعلمه وماله رحمه الله ، فإنها حقٌّ له لم يكن يذكره لنفسه ، فلنذكر له فى هـذا المقام أنّه صحب الدنيا وفارقها وهو يحسن بعلمه كما يحسن بمـاله ، أحسن الله إليه وأجزل له مثوبة الخير والذكر الجميل ؟

عباس محمود العقاد